المحاضرة العاشرة

الرؤية التركيبية في التراث.

مفهوم التراث لغة: وهو خلاصة ما خلفته الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة. جاء في المعجم الوسيط: "ورث فلانًا المال ومنه وعنه يرثه وَرثا ووِرثا وإرثا ورثة ووراثة: صار إليه ماله بعد موته، ويقال: ورث المجد وغيره، وورث أباه ماله ومجده: ورثه عنه"[1]. وجاء في لسان العرب: "ورثه ماله ومجده، وورثه عنه ورثا وارثة ووراثة وإراثة. أبو زيد: ورث فلان أباه يرثه وراثة ومِيراثا ومَيراثا... ويقال ورثت فلانا مالا أرثه وَرثا ووِرثا إذا مات مورثك، فصار ميراثه لك."[2].

مفهوم التراث اصطلاحا: وهو ما تركه السلف وآل إلى الخلف لكي يكون عبرة من الماضي ونهجا يستقي منه الأبناء الدروس ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل، والتراث في الحضارة بمثابة الجذور في الشجرة، فكلما خاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت واقدر على مواجهة تقلبات الزمان. والتراث يكون في مجال العقائد والفلسفة والعلوم والآداب والسلوك واللغة والفن والعمران، والتراث المكتوب والمعقول يشمل المخطوطات والذخائر العلمية والأدبية التي تحتاج إلى نشر وتحقيق ودراسة[3].

تزخر المكتبة اللغوية العربية بالعديد من صنوف التأليف اللغوية على مختلف المستويات في الأصوات والأبنية والتراكيب والدلالة، وغيرها من القضايا والظواهر التي استوعبت كل ما يتعلق باللغة العربية الفصحى ولهجاتها في جميع أنحاء العالم العربي[4].

وفي مجال الدراسة النحوية التركيبية، فقد بلغت هذه الدراسات عند علماء العربية شأوًا وشأنًا كبيرًا، وظهرت مدارس واتجاهات ذات خصائص وسمات كمدرسة البصرة والكوفة وبغداد ومصر والأندلس، ولا غرابة أن نجد هذا الكم الهائل من المؤلفات النحوية التي تمثل أساسًا قويًا ودرعًا متينًا وحصنًا منيعًا للحفاظ على سمات اللغة العربية الفصحى ومن اللحن والانحراف، لتبقى هذه

---

(1) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الأمواج، بيروت، ط2، 1990، مادة (ورث).

(2) ابن منظور: لسان العرب، مادة ورِث.

(3) هادي نهر: الأساس في فقه اللغة العربية ورمتها، دار الفكر، عمان، ط1، 2002، ص 15.

(4) حسام البهنساوي: التراث اللغوي العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004م، ص7.

اللغة الشريفة لغة القرآن الكريم حيّة مفهومة لدى عقول جميع متكلميها من المسلمين، وقد ضمن الله تعالى البقاء والخلود لهذه اللغة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

مفهوم الحداثة: الحداثة في اللغة نجدها في مادة (ح. د. ث)، ففي لسان العرب (حدث): و"الحدوث": نقيض القُدمة، حدث الشيء يحدث حدوثًا وحداثةً، وأحدثه هو، فهو مُحدث وحديث، وكذلك استحدثه... ومحدثات الأمور: ما ابتذله أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها، وفي الحديث: "أياكم ومحدثات الأمور"، جمع مُحدثة بالفتح وهي ما لم يكن معروفا في كتاب الله ولا سنة ولا إجماع[2].

وعليه فإن الحداثة في اللغة تعني أن شيئًا جديدًا قد أُحدث على الماضي المألوف لدى الناس في مكان ما أو علم معين، ومن ثمة فالحداثة في المفهوم اللغوي لدى العرب لها موقفها من الماضي والتراث وهذا الموقف لا يتسم أبدًا بالتناقض أو رفض أحد الطرفين، فكلا الطرفين (الحداثة والتراث) يكمل بعضها بعضا، ويهدفان معًا إلى الوصول إلى سُنّة الترقّي والتطوير والتحديث، للوصول إلى أفضل النتائج لخدمة البشرية في شتى مناحي الحياة[3].

بين الحداثة والتراث: إن الحداثة والتراث لا يتناقضان، فكلاهما امتداد شرعي مطلوب للآخر، ولكن إذا لم تستند الحداثة على دعامة قوية من الماضي فإنها تسقط في مهب الريح ولا تقوى على البقاء وأداء ما تصبو إليه من أهداف في مجالها أو ميدانها، فأي حداثة أو تحديث لا ينطلق من الماضي قد يُعد انحرافا عن الجادّة، وعودة بالعلم المراد تحديثه إلى عصره البدائي أو تطوير شيطاني لا يرتكز على دعائم قويّة تضمن له البقاء أو العطاء أو دون ذلك[4].

وفي العصر الحديث تتخذ الحداثة طابع العداء تجاه التراث وكل ما يتصل بالماضي أو يتعلق به بحجة أن معاودة النظر في الماضي ودراسته واحترامه ضرب من التخلف والجمود لا يتناسب مع مقتضيات العصر الحديث.

---

(1) قرآن كريم، سورة الحجر، آية: 09.

(2) ابن منظور: لسان العرب، مادة (حدث).

(3) عبد الله أحمد جاد الكريم: الدرس النحوي في القرن العشرين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004م، ص296

(4) المرجع السابق، ص297.

أهمية العنصر النحوي التركيبي: يساعدنا العنصر التركيبي على فهم وظيفة كل كلمة في التركيب، فعند الحديث عن الفاعل في كلمة "تدرس" أنّه ربما يكون "أنت" أو "هي"، والذي يحدد أحدهما هو السياق، فلو قلت: "رأيتك تدرس" تحدد الفاعل بـ "أنت".

وقد نبّه العرب القدماء قبل قرون خلت على هذه الحقيقة، وأكدّ هذا المعنى رائد النظرية التوليدية التحويلية "نعوم تشومسيكي N. Chomsky، فقرّر أنّ معرفة العلاقات في البنية التحتية أو العميقة ضروري لتفسير الجملة تفسيرا دلاليا صحيحًا، بمعنى أن ندرس العلاقات المكونة للجملة وما فيها من عناصر تحويلية كالترتيب والزيادة والحذف والتقديم والتأخير والحركة الإعرابية والتنغيم، فجملة: "محمد رسول" بسيطة سطحية، فالمعنى قريب ليس في الجملة عنصر من عناصر التحويل السابقة الذكر، فإن قلت: إنَّ محمدًا أو ما محمد إلّا رسول، فإن الجملة ازداد معناها بسبب التحويل الذي طرأ على التركيب[1].

والإعراب في اللغة العربية يقوم بدور أساسي في تحديد الوظائف النحوية التركيبية للكلمات من خلال حركاته التي تفرق بين كلمة وأخرى بالاشتراك مع العنصر الصرفي الذي يميز بين الاسم والفعل والحرف، فحين تقول: بلّغ محمد الرسالة، تكون الجملة على الأصل فعل فَفاعل فمفعول به، ويفهم السامع الخبر، لكن لو قال القائل: محمد بلغ الرسالة فإنه خرج عن الأصل في التركيب بهدف وهو التركيز على الفاعل فأخرجه من موقعه وقدّمه إلى بؤرة المعنى، وجاءت الجملة "بلغ الرسالة" متممة للمعنى كثيرة عن محمد، ولو قال القائل: الرسالة بلّغ محمدٌ، فإن الرسالة تقدمت إلى بؤرة المعنى، فهذه المعاني الجديدة حصلت بسبب التركيب الجديد[2].

اهتمام العرب القدماء بعلم التراكيب: يبدو أن معظم علماء اللغة العربية القدماء وكثيرين من المحدثين ينظرون إلى النحو على أنه علم اللغة، ففي القرن الأول من الهجرة اندفع عدد من العلماء بدوافع دينية وسياسية واجتماعية لاستقراء كثير من الشواهد العربية لاستنباط قواعدها وعلى الرغم من أن هذا الاستنباط قد سار في اتجاهين متوازيين وكوّن مدرستين اختلفتا في كثير من تخريج الظواهر اللغوية وتعقيد القواعد بناء على هذا التخريج أو الاختلاف في طريقة تناول

(1) خليل أحمد عمايرة: في نحو اللغة وتركيبها، عالم المعرفة، جدة، ط1، 1984م، ص54.

(2) عبد القادر أبو شريفة: علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1989م، ص39.

المادة اللغوية، إلا أن وجهة نظر المدرستين التقت عند القول بأن النحو علم العربية إلى أن جاء ابن جني ت395هـ، وترك مجموعة من الآراء اللغوية الرائدة في ميادين الصوت والصرف واللهجات العربية وخصائصها، وتداخل اللغات وتأثرها ببعض، فكانت ميدانًا خصبًا للدارسين ولا تزال إلى يومنا هذا أكثر البحوث عمقًا وإدراكًا لأنظمة اللغة، ومما هو بيّن واضح أن التركيز على المادة النحوية بقواعدها وقوانينها وتطبيقاتها عند الكثير من الدارسين القدماء والمحدثين جعلها تكون بمثابة الردف لمصطلح علم اللغة ودراسته، وجعل من يقرأ كتابًا في علم اللغة يتوقع أن يعرض كاتبه مجموعة من القواعد والقوانين التي تتعلق بالحركة الإعرابيّة وتخريجها وتوجيهها بطريقة حديثة ليتيسر تعليمها وتعلّمها، فأخذ النحو يعني عند الدارسين إعراب الكلمات في الجمل والتفنن في تخريج الحركة التي لا عامل لها في الجملة، يعللون أو يتناولون وإن لم يكن لتلك الجملة معنى[1].

لم تكن دراسة التراكيب اللغوية حكرا على علماء اللغة المحدثين، وأن العرب القدماء لم يعرفوا هذا النوع من الدراسة بل إنهم عادوا إلى كتب النحو والبلاغة فدرسوها دراسة ألسنية تمزج بين معطيات علم النحو وعلم المعاني، فهي تجمع بين دلالة الألفاظ والتراكيب النحوية وأغراضها البلاغية في صعيد واحد فتبحث عن التفاعل القائم بين الوظيفة النحوية والدلالة المعجمية للمفردة التي تشغل هذه الوظيفة، والموقف المعين لها للوصول إلى المعنى الدلالي للجملة، وبمعنى آخر تحاول الكشف عن تراكيب الجملة المتمثل في صورتها الصوتية المنطوقة في معناها المحكوم بالنظام العقلي. إن علم التراكيب يسعى إلى مزج معطيات علم النحو بمعطيات علم المعاني في البلاغة العربية لإخراج دراسة نحوية تعنى بالتراكيب كما تعنى بالتحليل حيث تمزج تراكيب الجمل بمعانيها مع ربطها بمواطن استعمالها ومقاماتها، بل لقد وجدنا الإمام عبد القاهر الجرجاني يقرر في ذلك الزمان المتقدم ما قرره علماء اللغة المحدثون اليوم، ويخرج للناس نظريته المشهورة في النظم حيث يثبت فيها أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات التي تتكون منها اللغة[2].

---

(1) تمام حسان: التراث اللغوي عند العرب: مقال بمجلة فصول، مصر، العدد الأول سنة 1980م، ص87.

(2) ميلود منصوري: دلالات التراكيب، ص 3.

عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم: وهي ببساطة التأليف أو البناء اللغوي للجملة وفق ما يقتضيه المعنى، أو هو على حد تعبير عبد القاهر "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"[1].

ويقدم عبد القاهر من خلال هذه النظرية منهجا بارعا في دراسة النص الأدبي باعتباره بناءا لغويا خاصا يكتسب قيمته من صناعته وتأليفه، وقد تحدث كثير من العلماء عن النظم في القرآن، ولكننا لا نعرف أحدا قبل عبد القاهر جعل من النظم نظرية بلاغية ونقدية متكاملة الأركان ومنهجا بلاغيا في تناول النص الأدبي وتقويمه، وإطارا عاما للقواعد البلاغية تفصيلية تقدم لدارس النص الأدبي أدوات رائعة لتذوق هذا النص ومعالجته. وقد بنى عبد القاهر نظريته (النظم) أي معاني النحو وأحكامه على أسس واضحة المعالم تعتمد على مبادئ محددة وهي:

1. الأساس الأول: معاني النحو، ودلالة هذا المصطلح عنده يعد من اهم أسس منهجه وأخطرها في أذهان معاصريه وما تلاهم والمحدثين على سواء.
2. الأساس الثاني: بيان النحو ويتكون من أشكال تحدد المعاني الخاصة بالنية.
3. الأساس الثالث: هو إمكانيات تأليف بطرق التعليق ومكونات الجملة والعبارة وطرق ربطها.
4. الأساس الرابع: هو اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض أي ملاحظة ما يجب أن يكون عليه الترتيب بين الكلمات[2].

الجهود النحوية عند علماء العرب: ليس من شك أن العلماء العرب قد بذلوا جهودًا مشكورة ومحمودة في دراسة التركيب والنحو العربي لا ينكرها إلا جاحد ينحاز إلى غير الحق والحقيقة.

لقد شمّر هؤلاء العظماء عن سواعد الجد واستنهضوا عزائمهم الصادقة وشحذوا هممهم لإنشاء علم يحفظ العربية لغة القرآن الكريم من اللحن والاندثار، وقد كان الدافع عندهم هو الحفاظ عل لغة القرآن الكريم: دستور الإسلام ومنهاج المسلمين، فما توانت عزائمهم ولا استكانت هممهم، بل طفقوا يدققون فيما بينهم ويتنافسون بهدف الوصول إل الصواب في قواعدهم.

---

(1) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 81.

(2) البدران زهران: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 175.

إننا لا نستطيع أن نقول بأن العلماء العرب قد أصابوا في جميع ما ذكروه في دراسة أبواب النحو والتراكيب المختلفة، أو أنهم قد استخدموا منهجًا علميًا التزموا به، واتبعوا مسلكا موّحدا من الدرس والتحليل، فلم يكن هذا الهدف الثاني مواتيًا لهم أو متوافرا بين أيديهم في هذا الزمان المتقدّم؛ ولم تكن منهجية البحث من الأمور التي يمكن تحقيقها وتنفيذها ساء بالنسبة للعلماء العرب أو بالنسبة لغيرهم من العلماء الأوروبيين.

إن كتاب سيبويه ت189هـ الذي عدّ أول كتاب في النحو العربي يصل إلينا يُعد حقًا كتابًا متكاملًا في عرض جميع أبواب النحو والصرف والأصوات العربية كما يعد نموذجًا حقيقيًا لنهج التأليف العربي في هذا المجال قد حذا حذوه عديد من العلماء لفترة ليست بالقصيرة[1].

ومن جهة أخرى ينبغي أن نؤكد أن العلماء القدماء يتمسكون بمفاهيم لا يحيدون عنها، فهم يتمسكون بقواعد اللغة والحرص على نقائها وفصاحتها مع ضرورة أن تتضمن اللغة مفهومًا جماليًا يقوم على اعتماد الصيغ اللغوية التي توصف بالصيغ الحسنة استنادًا إلى معيار جمالي بحت، فوظيفة هذه القواعد التقليدية في المقام الأول هو المحافظة على أصالة اللغة وترسيخ مفهومها الجمالي[2].

ومن ثم فإنّ الدرس النحوي التركيبي عند القدماء يعتمد على الأمثلة والشواهد القديمة، مع التمسك بضرورة القياس على معيار صحتها باعتبار أنها الأقدم وإنما هو الأفصح والأصوب ولذلك كان احتفاؤهم واهتمامهم بالأصول اللغوية المكتوبة.

(1) حسام البهنساوي: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د ط، 1994م، ص20.

(2) ميشال زكرياء: مباحث في الألسنية وتعليم اللغة، بيروت، ط2، 1985م، ص 73.